

الطامة الصغرى أو الحرب الكبرى

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ مَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .
أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (سورة الانعام ٦ : ٦٦)

« ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ، وانه ليعنى أن رآه اعترز واستغنى ،
وان مدّ الطغيان لآلى جزر ، وان غناه لآلى فقر ، وان البغي مصرعه ونجم ، وان
علو الجبارين لآلى هبوط ذميم

كانت المسألة الشرقية فزاعة أوربة اذا فزعت من سوء العواقب ، وسأمتها
اذا تطيرت من امارات النوائب ، وكانت ترى ان مشكلتها أعقد من ذنب الضب ،
وأن حلها أعسر من تريح الدائرة ، وقد أنذرها داهية ساستها ، (البرنس بيسارك)
بأن شرارة واحدة من نار حرب بلقانية تكفي لإحراق ممالك أوربة كلها ، ولكنهم
تأروا بالندر ، وغرهم ما كانوا يسمونه التوازن الأوربي بين وفاق مثلث وحلاف
مثلث . وألفت دولة الروسية بين المختلفين من الدول البلقانية ، فجعلت البلقان واليونان
والصرب والجبل الأسود إلبا واحدا على الدولة العثمانية . بعد أن أغارت ايطالية على
مملكة كبيرة من ممالكها وهي طرابلس الغرب وبرقة .

ثم سمعت الدول الكبرى كلها للبلقانيين بقتال الدولة العثمانية ، ولكنهم
صرحن بأنهم لا يسمحون بتغيير ما في خريته البلقان ، لأن التنازع على تلك الارض
مثار البغي والعدوان ، فاشتعلت نيران الحرب ، وظهر البلقانيون فيها من القسوة
والوحشية والفظائع والفواحش مالا يزيد عليه ، ولم ينبض في قلوب رجال الدول
الكبرى عرق من عروق الرأفة والرحمة ، ولا احتج أحد منهم على تلك المذابح
والفظائع بكلمة ، وانما كان همهم محصورا في حصر الحرب في البلقان ، ومنع شررها
ان يصل الى ممالكهم الكبار

ثم شرع البلقانيون في قسمة ما استولوا عليه من البلاد العثمانية ، فسمحت لهم الدول بذلك متناسية وعددها بدم السباح . فوقع بينهم التنازع والتقاطع ، وحل الخلاف محل الخلاف ، ولم يرضهم ما حكم به في القسمة مؤتمر السفراء ، فأوقدوا نار القتال بينهم ، وتقضوا ما أبرمته الدول لهم . ثم دخلت رومانية في الأمر معهم ، وضربت من الغنيمة بسهم ، وكانت القسمة ضري ، غبن بها البلغار ، وكان القدرح المعلى لليونان ، واعتزت الصرب أي اعزاز . وكانت النمسة مسعر نار الفتنة بينهم ، لتأمن مغبة اعزاز الروسية بهم .

وقعت الواقعة ، وفتح باب المسألة الشرقية ، وسؤل الفرور للدول الكبرى عملها ، وظنت ان ساستها قدروا بداهتهم على حصر نيرانها في موقدها ، ومنع شررها ان يتعدى الى ماحولها ، وأن أوربة المملوءة من البارود والديناميت ، أمنت أن تصيبها الشرارة التي أنفدتها بسمر ك فيعنها الحريق . ونسوا عدل الله انعام ، في جميع الأمم والأقوام ، وانه يعاقب المقر للشر كجترحه ، ويجزي الساعي بالخير كفاعله ، (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون)

غز الصرب ما أوتيت من نصر ، وهن سعة في الملك ، ومن عود الصربيين العثمانيين اليها ، فطمعت في صرب النمسيين وفيما يسكنونه من البلاد أيضا ، فزادت جمعياتها السرية الساعية الى ذلك جرأة وإقداما ، حتى اغتال بعض الفدائيين منهم ولي عهد النمسة وقرينته (في ٢٨ يونيو الماضي) في مدينة (بوسنه سراي) عاصمة البوسنه عند زيارتهما لها . وقد ثبت لدى حكومة النمسة والمجر ان هذه الجناية كانت آر مكيدة دبرت في (بلغراد) عاصمة الصرب ، وان بعض الضباط وعمال الحكومة من الصربيين هم الذين اعطوا الجناة ما كان معهم من السلاح والقذائف النارية ، وكلهم من جمعية صربية ثورية . فأرسلت حكومة النمسة والمجر بلاغ تهديد وانذار للحكومة الصرب ، شتمل على ما يرهقها ويذلها

فما كلفتها اياه نصريحا أو ضمنا أن تعترف باشتراك بعض ضباطها وهوظفيها في جناية قتل ولي العهد وزوجه ، وتبرأ من عملهم وتصريح بالأسف لوقوعه — وان تنشر الاعتراف والبراءة في جريدتها الرسمية وجريدتها العسكرية ، — وان تبرأ من

أعمال الجمعيات الصربية المحرزة على عداوة النمسة - وان تحمل جمعية (نارونا) أو (ابرانا) - وان تضبط جميع المطبوعات الصربية المشتملة على التعريض على النمسة والتنفير منها لهذه الجمعية وغيرها - وان تحمل جميع الضباط والمستخدمين الذين تثبت لدى حكومة النمسة تهمة تحريرهم على عداوتها - وان تعاقب الشركاء في جنابة اغتيال ولي العهد من الصربيين المقيمين في بلادهم ، ومنهم بعض الضباط والموظفين المعينين باسمهم - ومنها ان تحذف من كتب التعليم كل ما يعد دعوة الى معاداة النمسة ، وتحمل المعلمين الذين يثبون هذه الدعوة - ومنها ان تمنع تهريب السلاح والمواد المفرقة الى ما وراء الحدود - ومنها ان تقبل من تدبيرهم حكومة النمسة لمساعدة حكومة الصرب على تنفيذ هذه الاقتراحات

كتب إنذار النمسة في ٢٣ يوليو الماضي ، وكلفت الصرب ان تجيب عنه في مدة ٤٨ ساعة . أما الصرب فلم تقبل مطالب النمسة ، وبلغت الدول الانذار وطلبت منها التوسط في الأمر ، وأما الدول فقد اختلف رأيهن - فروسية عدت بلاغ النمسة وسيلة منها الى قتال الصرب وإذلالها ، وصرحت بأنها لا تسكت على ذلك ، وبادرت الى مذاكرة فرنسا وانكلترا ومطالبتهما بالانحداد معهما على الحرب والقتال ، فأسرعت فرنسا الى وعددها بالقيام بجميع عهودها التي فرضها عليها المحالفة . ولكن انكلترا ترددت في الأمر ، ولم تعد بالمساعدة على الحرب ، وطلعت تخاطب سفراءها بلسان البرق ، مجتهدة في رتق الفسق . وأما ألمانيا فقد أظهرت العطف على حليفها ، وارتأت وجوب حصر الخلاف بين النمسة والصرب دون سواهما ، حتى لا يتعدى لهيب النار الى أوربة كلها ، وتبادل عاهل الألمان وقبصر الروس البرقيات في وجوب صيانة السلم في أوربة ، وصرح الأول للثاني بأن ذلك موقوف على عدم تصدي روسية للاستعداد للحرب . ولكن روسية بادرت الى تعبئة جيشها تعبئة عامة ، وبلغ ناظر خارجيتها سفيرا انكلترا ان عند حكومته براهين قاطعة على ان ألمانيا تستعد برا وبحرا لمهاجمتها . فروسية بدأت بالتعبئة جهرا ، متهمة ألمانيا بأنها تستعد سرا ، وأنها لا تدعها تسبقها في الاستعداد

والمبادر عما دار بين الدول في هذه المسألة أن ما كانوا يقولونه ويكتبونه كان

له ظهر وبطن ، والظاهر منه أن انكلترة وفرنسة كاتتا حريصتين على منع الحرب الأوربية، ولكن روسية وألمانية لم تدعا لمن طريقا يسلكانه لذلك . ففي ٢١ يوليو قر قرار الروسية على التمسئة العامة رسميا ، وألمانية وفرنسة امرتا بذلك في أول أغسطس . وأعلنت ألمانية الحرب على روسية في ٢ منه بناء على اجتياز بعض الجنود الروسية للحدود ، وتنايحت^(١) سائر الدول الكبرى على الحرب ماعدا إيطاليا فانها لزمّت الحياد

نعم ان وراء الاسباب الرسمية للحرب أسبابا أخرى تقدمتها ترجع الى أصل واحد في السياسة ، وهو تعارض الدول الكبرى في المصالح والمنافع والسيادة والمظمة في الأرض ، فروسية ترمي الى ان تكون ذات السيادة العليا بضم عصبية الشعوب السلافية في البلقان والنمسة اليها ، والتوسل بذلك الى النفوذ من زقاني الآستانة (البوسفور والدرديل) الى البحر الأبيض المتوسط ، الذي هو بين أوربة وآسية وأفريقية بمنزلة القلب من جسد الانسان .

وألمانية تود أن تكون ذات السيادة العليا في أوربة كلها بل في العالم كله ، بالجمع بين القوتين البرية والبحرية ، على أكل ما يصل اليه ارتقاء العلوم الطبيعية ، والفنون الآلية وكانت انكلترة قد سبقت الدول كلها بالقوة البحرية التي جعلت لها السيادة العليا في الاستعمار ، فهي ترى انه يجب عليها أن تحافظ على ما آتاه الله بحجدها وتديرها ، فكانت كلما رأت ألمانية أنشأت بارجة حربية تنشى بارجتين مثلها ، لانها إذا لم تفعل ذلك لاتبث أن تسلبها ألمانية ملكها

وأما فرنسة فهي على ما كان لها من السبق في الفنون والأعمال الحربية ، من برية وبحرية ، لم تكن هذا في العهد الذي عظمت فيه المباراة بين انكلترة وألمانية ، مجتهدة في الاستعداد للحرب الأوربية بحسب ما تخولها ثروتها ومعارفها ، بل اكتفت من المظمة بتوسيع مساحة مستعمراتها ، بالاستيلاء على ملكة المغرب الأقصى بعد إضعافها ، بإيقاع الفتن والحروب الداخلية فيها . وانصرفت الى التمتع بسعة الثروة ونعمة الحضارة ، واكتفت من اتقاء زحف ألمانية عليها بتحصين حدودها ، وبمحاولة

(١) التنايح بالمشاة الصحفية بمعنى التنايح بالموحدة إلا أنه خاص بالشر

روسية ثم مودة انكلترة لها ، فكانت تمدّ روسية بالقناطير المقنطرة من الذهب ؛
وتغريها بما يوافق هواها من الاستعداد للحرب ، وتوخر صدرها ، وتستثير دفين
حقدتها ، وتستخرج كين ضمئها ، على النمسة وألمانية معا . وكان من سياستها أن
تعطي روسية المال الذي تقضي الحال اتفاقه على الاستعداد الحربي بمباراة لألمانية —
تستفيد بذلك فائدين — استغلال المال بدلا من اضعافه في زيادة أهبة الحرب ،
وإعداد جند غريب للدفاع عن فرنسة بدلا من تريض معظم شبابها للقتل ، مع
مأمية به من قلة النسل ، — ولكن انكلترة حملتها بعد الاتفاق معها على تعزيز
قوتها البحرية ، كما حملت هي روسية على زيادة العناية بجميع المعدات الحربية ،

بذلك كله أصبحت هذه الدول المريقة في العلم والصناعة ، والثروة والحضارة ،
تفق مئات الملايين مما تمصه من ثروة البشر وثمرات كسبهم . على الاستعداد لإراقة
دمائهم ، وتدمير حضارتهم ، وكلها مشتركة في هذا الوزر الكبير ، ومصرة على هذا
الحث العظيم ، الذي لا باعث له الا الطمع في الكسب ، وحب العلو في الارض ،
وان كانت تموجه بدعوى تأييد السلم بالاستعداد للحرب ؛ وعدم استعمال هذا السلاح
في غير التوحشين ، الذين تريد تهذيبهم بالمدنية والدين !!

وانما تراهم يمحسون ألمانية أو عاهلها غليوم الثاني بمزيد الألم ، ويرموه بتعمد
نحراق أوربة في بحر من الدم ، لأن أمته قد صارت بسميه أشد ام الارض عناية
بالفنون والاعمال العسكرية ، واستعدادا للحروب البرية والبحرية ، حتى اضطرت
سائر الدول اضطارا لمجاراتها في ذلك ، فاذا كانت ألمانية لم ترض من الدول التي
سبقها الى الاستعمار بمساواتها لها في حرية التجارة والكسب في بلادهم
ومستعمراتهم ، ولا بما بذتتهن به من الماء النسي في تجارتها وصناعتها فقامت تستعد
لسلبين ما في أيديهن ، أو الاستلاء عليهن ، — فكيف يرضين بأن يعرضن
ملكهن للصباغ والخضوع لقوة الشعب الجرمانى العسكرية القاهرة ؟

هذه حجة الام الأوربية على ألمانية التي ارادت ان تعامل الدول التي جاورتها
أو سبقتها بالحضارة ، بمثل ما عاملن به الام التي ظلب عليها الجهل والبداءة ، وهي
السيادة بقوة العلم والصناعة . على ان الجرائد المصرية الرئيسية كلقطم والاهرام قلت

لنا عن لندن وباريس وبتربسبرج ان جميع الشعوب تلقت نبأ اعلان الحرب بالسروور والابتهاج ، والاحتفاف في الشوارع والأسواق ، بل استثنوا الشعب الالمانى فرحوا أنه كاره للحرب ، مسوق اليها بتأثير الماهل غلبوم الثاني والحزب العسكري . فان صح قولهم هذا - وان بصح - فهو فضيلة لهذا الشعب على سائر الشعوب الاوربية . ولكنهم ارادوا ان يهونوا امره ، ويغالغوا في ذم عاهله ، فمدحوه بغير قصد ، وسيرجمون عن هذا المدح

حسبنا هذه الجملة الوجيزة من بيان أسباب هذه الحرب ومقدماتها ، ونهتتم المقال بعبارة المؤمنين بالله فيها ، فنقول ان هذه الحرب تربية من الله تعالى للبشر الذين بني اقويائهم على ضعفائهم ، ولم يشكروا نعم الله عليهم بتسخير الطبيعة لهم ، وعكبتهم بسعة العلم بسننه فيها ، من جميع أنواع الانتفاع بها ، بل كفروا هذه النعم بالبنى في الارض ، واستملاء بعضهم على بعض ، حتى انهم حقروا أخاهم الانسان الذي لم يصل الى درجتهم في العلم ، فجعلوه - وقد كرمه الله - أدنى منزلة من الحيوانات العجم ، فلو أنهم رأوا قطعا من الانعام أو أسرابا من الطير ، يفتك بعضها ببعض ، وتسرف في الظلم والعدوان ، كما فعل جيرانهم في البلقان ، لحالوا بينها ، ومنعوا من التماذي في ظلمها

أما وقد فعلوا ما فعلوا ، ورضوا بما رضوا ، وجعلوا جل همهم الاستعداد لسفك الدماء ودك صروح العمران - فلا بد أن ينتقم الله تعالى منهم لسكفرهم بنمته ، ويزلزل قواهم بما استعلوا وبنوا به على الضعفاء من خلقه ، وكذلك فعل - فقد جعل الآلات الحربية التي بها يتحكمون وبالأعليهم ، وهذا يا أيتهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ففتك بهم مناظيرهم وطياراتهم ، ويوارجمهم وغواصاتهم ، وألغامهم وبنادقهم ومدافعهم ، وقني من جوههم ، أكثر مما أفنوا من اخوانهم البشر بأيديهم ، أو بمساعدتهم وإقرارهم . وأذق بعضهم بأس بعض ، فجعل محالقاتهم واتفاقاتهم وبالأعليهم ، وسببا لتعميم الانتقام بهم . فصدق قول الله الذي صدقنا به الكلام عليهم . وسيصدق وعده أيضا بجعل العاقبة للمتقين ، الذين يحررون الشعوب المغلوبة من استعباد الظالمين ، وإنما يرحم الله الراحمين ، والراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء .